

إسهامات مالك بن نبي وجاك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي
**The contribution of Malek Bennabi and Jacques Berque to
the sociological analysis of Arab society.**

سي محمد الويزة¹

¹جامعة أكلي محند أولحاج- (البويرة)، l.simohamed@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2026/05/16 تاريخ القبول: 2026/06/11 تاريخ النشر: 2026/08/12

ملخص:

ساهم العديد من المفكرين في بناء علم الاجتماع، بداية من مؤسسيه الذين كانت لهم اللبنة الأولى لوضع أسس علم الاجتماع، بداية بالمفكر العربي عبد الرحمن ابن خلدون، والمفكرين الغربيين كأمثال اجست كونت وسبنسر وميرتون... إلخ، ولقد برز في العصر الحديث مفكرين كانت لهم أثر كبير في تحليل قضايا اجتماعية تهم المجتمعات العربية عامة والمجتمع الجزائري خاصة، ونشير هنا إلى مالك بن نبي والذي سلط الضوء على عدة قضايا مجتمعية وقدم لها تحليلا سوسيولوجيا، كقضية الهوية وأزمة الثقافة وكذلك وعي الشباب ومدى مساهمتهم في بناء الوطن، وكذلك يبرز اسم آخر لا يقل أهمية عن مالك بن نبي، وهو المفكر الفرنسي جاك بورك ذو الجنسية الفرنسية والمولود في الجزائر، وأسهم في إبراز الحقيقة الكاملة لسياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومعاناة الشعب الجزائري على كل الأصعدة، ودع إلى مراعاة الثقافة المحلية للشعوب، وكذلك المساهمة في الوعي الجمعي لأفراد المجتمع. كلمات مفتاحية: مالك بن نبي، جاك بورك، الثقافة، المجتمع، علم الاجتماع.

Abstract:

Many thinkers contributed to the development of sociology, beginning with its founder who laid the foundations of the discipline, starting with the Arab Muslim thinker Ibn Khaldun,

and Western thinkers such as Auguste Comte, Spencer, Merton, etc. In modern times, several thinkers have emerged who have had a significant impact on analyzing social issues of concern to Arab societies in general and Algerian society in particular. Among them is Malek Bennabi, who shed light on several societal issues and offered a sociological analysis of them, such as the issue of identity, the crisis of culture, and the awareness of youth and their contribution to nation-building. Another name that stands out is no less important than Malek Bennabi: the French thinker Jacques Bourque, a French citizen born in Algeria. He contributed to revealing the full truth about French colonial policy in Algeria and the suffering of the Algerian people on all levels. He also advocated for respecting the local cultures of peoples and contributing to the collective awareness of individuals within society.

Keywords: Malek Bennabi, Jacques Bourque, culture, sociology.

* المؤلف المرسل: سي محمد الويزة

1. مقدمة

يُعدّ علم الاجتماع من العلوم الإنسانية التي تسعى إلى فهم الظواهر الاجتماعية وتحليل بنيات المجتمع وتحولاته، انطلاقاً من مقاربات نظرية ومنهجية متعددة، وقد أولى هذا العلم اهتماماً خاصاً بدراسة المجتمعات غير الغربية، ولا سيما المجتمعات العربية والإسلامية، التي عرفت تحولات عميقة بفعل الاستعمار والتغيرات الثقافية، والتحولات الحضارية، وفي هذا السياق، برز عدد من المفكرين الذين حاولوا تقديم قراءات سوسيولوجية تتجاوز التفسيرات السطحية والاختزالية وتسعى إلى فهم المجتمع في أبعاده التاريخية والثقافية والحضارية، ويُعدّ كلّ من جاك بورك ومالك بن نبي من أبرز الأسماء الفكرية التي أسهمت في إثراء التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي، رغم اختلاف خلفياتهما الفكرية والمنهجية، فقد سعى جاك بورك، من موقعه كباحث غربي، إلى دراسة المجتمعات العربية دراسة ميدانية نقدية، مبتعداً

عن النزعة الاستشراقية التقليدية، ومؤكداً على ضرورة فهم المجتمع من داخله..، في حين ركّز مالك بن نبي على تحليل مشكلات التخلف الاجتماعي والحضاري من منظور داخلي معتبراً أن أزمة المجتمع العربي ليست فقط سياسية أو اقتصادية، بل هي في جوهرها أزمة فكر وثقافة، وتكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يسلط الضوء على إسهامات فكرية ساعدت على تطوير علم الاجتماع من خلال مقاربات نقدية وإنسانية، أسهمت في توسيع أفق فهم الظواهر الاجتماعية في المجتمعات العربية والإسلامية، وفتحت المجال أمام بناء علم اجتماع أكثر ارتباطاً بالواقع الثقافي والتاريخي لهذه المجتمعات.

وانطلاقاً مما سبق نطرح الإشكالية الجوهرية للبحث إلى أي مدى أسهم كلّ من جاك بورك ومالك بن نبي في تطوير التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي، وما أوجه التلاق والاختلاف بين إسهاماتهما في علم الاجتماع؟

2. مدخل نظري عام إلى علم الاجتماع عند جاك بورك ومالك بن نبي:

1.2 مفهوم علم الاجتماع عند جاك بورك:

يرى جاك بورك أن علم الاجتماع ليس مجرد "تجميع للإحصائيات" أو رصد للظواهر السطحية، بل هو "سوسيولوجيا الأعماق" التي تحاول النفاذ إلى روح الجماعة، وبالنسبة لبورك، علم الاجتماع هو أداة لتحرير الشعوب وفهم مسارات تاريخها، فهو لا ينظر إلى المجتمع ككتلة ميتة، بل ككائن حي يتنفس من خلال رموزه ولغته وأساطيره، ولقد طور بورك ما يسميه بـ "السوسيولوجيا العلائقية"، التي تدرس العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته الجغرافية وتراثه التاريخي.

إن علم الاجتماع عند بورك يرفض المركزية الغربية، فهو يرى أن لكل مجتمع (وخاصة المجتمعات العربية) منطقاً خاصاً للتطور لا يمكن فهمه إلا من خلال الانغماس في خصوصيته الثقافية، ثم إن مفهوم "العلم" هنا يتجاوز الوصف إلى "التفسير الكلي" الذي يربط بين الفرد والكون، وبين الماضي والمستقبل. المجتمع في نظر بورك هو ساحة لصراع "الإرادات"، وعلم الاجتماع هو الذي يكشف عن كيفية

إسهامات مالك بن نبي و جاك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي

تحول هذه الإيرادات إلى قوى فاعلة في التاريخ، مع التركيز على دور "الوعي" واللاوعي الجمعي في تشكيل الهيكل الاجتماعي.(بورك، 1982، الصفحات 45-46)

2.2. مفهوم علم الاجتماع عند مالك بن نبي:

ينطلق مالك بن نبي في تحديده لمفهوم علم الاجتماع من زاوية حضارية بحثة حيث يعتبره "علم بناء الحضارة". علم الاجتماع عند بن نبي لا يهتم بالظاهرة الاجتماعية كحدث معزول، بل كجزء من دورة حضارية شاملة، وهو يرى أن المجتمع ليس مجرد تجمع لأفراد، بل هو "شبكة من الروابط" التي تجمع بين ثلاثة عناصر أساسية: (الإنسان + التراب + الوقت) صهرتها "الفكرة الدينية"، ويعتبر بن نبي أن وظيفة علم الاجتماع هي دراسة "الديناميكا الاجتماعية"، أي كيف يتحرك المجتمع من حالة "الركود" (ما قبل الحضارة) إلى حالة "الفاعلية" (الحضارة)، ثم كيف يسقط في "القابلية للاستعمار"، وعلم الاجتماع عند بن نبي هو علم "وظيفي" بامتياز، يسعى لتشخيص الأمراض الاجتماعية (مثل التكديس، والشئنية) وتقديم الحلول العملية لإعادة تفعيل الفرد داخل الجماعة، والمجتمع بالنسبة له هو "إرادة جماعية" محكومة بـ "التركيب الهادف" لعناصر الحضارة، وأي خلل في هذا التركيب يؤدي إلى تفكك البناء الاجتماعي ودخول المجتمع في طور "ما بعد الحضارة" (نبي م.، 1986، صفحة 40)

3.2 المنطلقات الفكرية والمنهجية لكلا المفكرين:

تتقاطع المنطلقات الفكرية لكل من بورك وبن نبي في رفضهما للمادية الجافة، لكنهما يختلفان في زاوية الرؤية، فجاك بورك ينطلق من منهج "الظاهراتية (الفينومينولوجيا)"

والأنثروبولوجيا، حيث يعتمد على "المعايشة" وتفكيك الرموز واللغة لفهم المجتمع ومنطلقه الفكري هو "الإنسانية الشاملة" التي تحترم الخصوصيات الثقافية ومنهجه يقوم على "الشمولية" التي لا تفصل بين المادة والروح أو بين التاريخ والاجتماع.

أما مالك بن نبي فينطلق من منهج "التحليل الحضاري" والسنن الكونية، ومنطلقه الفكري هو "الرؤية القرآنية" لحركة التاريخ، لكنه يصغها في قوالب سوسيولوجية حديثة، ويعتمد بن نبي على المنهج "التركيبي"، فهو لا يكتفي بالتحليل، بل يسعى لتركيب العناصر لصياغة "معادلة الحضارة"، وبينما يركز بورك على "التشخيص"

الفردية والجمعي كقيمة عليا، يركز بن نبي على "الفاعلية" والإنتاجية كمعيار للصحة الاجتماعية، وكلا المفكرين يلتقيان في أن "الفكرة" (سواء كانت رمزاً عند بورك أو ديناً عند بن نبي) هي المحرك الأساسي للتغير الاجتماعي، وأن المنهج الأنسب لدراسة المجتمعات العربية والإسلامية يجب أن يكون منهجاً "مركباً" يجمع بين استيعاب معطيات العصر وبين الحفاظ على الجذور الثقافية العميقة. (نايف، 2005، الصفحات 112-123)

3. إسهامات جاك بورك في تحليل المجتمع العربي والإسلامي:

3.1 تحليل البنية الاجتماعية للمجتمعات العربية.

يُعد جاك بورك من أبرز المنظرين الذين رفضوا اختزال المجتمعات العربية في قوالب جامدة أو "نماذج نمطية" في تحليله للبنية الاجتماعية، انطلق بورك من مفهوم "الشمولية الاجتماعية"، حيث يرى أن المجتمع العربي، ولا سيما القروي منه، يشكل وحدة لا تقبل التجزئة بين ما هو اقتصادي، وديني، ورمزي، ولقد ركز بورك في دراساته الميدانية (خاصة في الأطلس الكبير بالمغرب) على "القبيلة" كبنية ديناميكية، معتبراً إياها ليست مجرد تجمع عصوي، بل هي "جمهورية ريفية" تمتلك نظاماً قانونياً عرفياً متطوراً ينظم علاقة الإنسان بالأرض والماء والمقدس، ويذهب بورك إلى أبعد من ذلك بتحليل "الشخصية القاعدية" للفرد العربي، موضحاً أن البنية الاجتماعية تقوم على جدلية "الداخل" و"الخارج"، فالمجتمع العربي يعيش حالة من التمسك بالهوية (الأصالة) في مواجهة تحديات الحداثة (المعاصرة)، و لقد استنبط بورك أن البنية الاجتماعية العربية ليست "ساكنة" كما ادعى المستشرقون الكلاسيكيون، بل هي بنية في حالة "غليان دائمة"، تحركها قيم الكرامة والشهامة، وتؤطرها اللغة العربية التي يعتبرها بورك "العمود الفقري" لهذه البنية، فهي ليست وسيلة تواصل فحسب، بل هي مستودع للقيم والذاكرة الجمعية، وكما رصد بورك تحول هذه البنى من "النظام المشاعي" والتعاوني إلى أنظمة أكثر تعقيداً مع ظهور المدينة الحديثة، محذراً من أن تفكك هذه الروابط التقليدية دون بديل قيمي صلب قد يؤدي إلى حالة من التيه الاجتماعي. (بورك، 1980، الصفحات 85-86)

2.3 التغير الاجتماعي وإشكالية الحداثة:

يمثل التغير الاجتماعي في فكر جاك بورك مفهوم "النهضة" بمفهومها الواسع، وليس مجرد تحديث تقني، يرى بورك أن المجتمعات العربية تعيش "تغيراً بنيوياً" ناتجاً عن صدمة الاحتكاك بالغرب، لكنه يؤكد أن هذا التغير يجب أن ينبع من "الداخل" ليكون أصيلاً، وإن إشكالية الحداثة عند بورك تكمن في قدرة العقل العربي على استيعاب "التقنية" دون فقدان "الروح"، ولقد حلل بورك ظاهرة "التحضر السريع" واعتبر أن المدينة العربية الحديثة أصبحت "مختبراً" تندمج فيه القيم الريفية بالقيم العالمية، مما ينتج توترات اجتماعية وسياسية عميقة، وأما الحداثة عند بورك ليست نموذجاً جاهزاً للاستيراد، بل هي "إبداع مستمر"، وهو ينتقد بشدة "الحداثة القشرية" التي تكتفي بالمظاهر المادية وتهمل الجوهر الثقافي، وبالنسبة لبورك، فإن المجتمع العربي يمتلك طاقة "احتجاجية" و"تجديدية" كامنة في تراثه، وهذه الطاقة هي المحرك الفعلي للتغير، وإن التحدي الكبير الذي يواجهه المجتمع العربي في مساره نحو الحداثة هو كيفية "نزع القداسة" عن الأشياء الدنيوية مع الحفاظ على "المقدس الروحي" ويخلص بورك إلى أن التغير الاجتماعي الناجح هو الذي يحقق المصالحة بين "التاريخ" (الماضي) و"المستقبل"، وهو ما يسميه بـ "التشخص التاريخي"، أي أن يصبح المجتمع العربي سيداً لمصيره ومشاركاً في الحضارة الكونية بخصائصه الثقافية. (بورك، 1982، الصفحات 190-192)

2-3- الاستعمار وأثره في البناء الاجتماعي:

يعتبر تحليل بورك للاستعمار تحليلاً "سوسيولوجياً عميقاً" يتجاوز السرد السياسي التقليدي، يرى بورك أن الاستعمار مثل "انقطاعاً تاريخياً" عنيفاً، حيث عملت الآلة الاستعمارية على تقويض "التوازنات الاجتماعية" التي كانت قائمة لقرون، في دراساته حول المغرب العربي، أوضح بورك كيف قام الاستعمار بـ "تسييج الأرض" وتحويلها إلى ملكية خاصة، مما دمر نظام "الجماعة" التقليدي وأدى إلى تفكير الفئات الاجتماعية الواسعة، وهو ما خلق طبقة من "البروليتاريا" الرثة في ضواحي المدن، وإلى جانب الأثر الاقتصادي حلل بورك "الاستعمار الثقافي" (أو الاستعمار الداخلي)، حيث حاول المستعمر فرض لغته ونظامه التعليمي وقيمه، مما خلق حالة من "الازدواجية"

في البناء الاجتماعي العربي، فظهرت "نخبة مفرنسة" أو متغربة منفصلة عن واقعها و"جماهير" متمسكة بهويتها التقليدية، وهذا التمييز للنسيج الاجتماعي كان يهدف حسب بورك، إلى جعل المجتمع العربي "تابعاً" ويفقده القدرة على المبادرة التاريخية ومع ذلك يرى بورك أن الاستعمار، ومن خلال فعل المقاومة الذي ولده، قد ساهم بشكل غير مقصود في بلورة "الوعي الوطني الحديث"، فالحركات الوطنية استلهمت من التراث الاجتماعي (كالزوايا والمساجد) أدوات للتعبئة والمواجهة، مما جعل مرحلة ما بعد الاستعمار مرحلة صراع من أجل استعادة "الوحدة البنيوية" للمجتمع وتجاوز تركة التجزئة والتبعية (بورك، 2008، الصفحات 350-351)

4. إسهامات مالك بن نبي في تحليل مشكلات المجتمع والتخلف الاجتماعي.

4-1- نظرية القابلية للاستعمار.

يعتبر مفهوم القابلية للاستعمار من المفاهيم التي شغلت فكر مالك بن نبي حيث أشار في تحليله له إلى الخطورة التي تهدد الأمة الإسلامية، وأرجعها إلى فقدان الأمة للدوافع التي تجعلها في مقدمة الأمم" ويمكن إرجاع القابلية للاستعمار إلى مجموعة من الخصائص النفسية والاجتماعية التي تساهم في وقوع أمة كفريسة سهلة للأعداء والمستعمرين". (bentefnouchet، 1982، صفحة 133) وهي بالنسبة لمالك بن نبي تخلق في نفسية الفرد عندما يكون موجود في وضعية قابلة لأي استغلال وهيمنة، والملاحظ هو أن المجتمع الإسلامي هو في حالة عجز عن تحقيق نهضته لكون أفرادهم يظهرون بنوع من السلبية واللامبالاة تجاه مشكلات الواقع الذي أراده له الاستعمار وفرضه عليهم، وحالة الرضي بالواقع المتدهور والأليم هذه دون بذل الجهد لتغييره، وهذه ظاهرة تستمد معناها «من البعد الثقافي والاجتماعي في المجتمع الذي يسوده الانحطاط أو ما بعد التحضر كما يظهر في واقع المجتمعات المستعمرة، وكما يبرز واقع الفرد في جانبه النفسي أو سلوكه المتصف بالسلبية والخضوع». (السعد، 1997، صفحة 155)

إذ أن الهزيمة النفسية التي تعانيها طائفة من أفراد المجتمع الإسلامي دفعت بهم إلى السير في عكس الاتجاه الصحيح للتقدم ببناء، ولكن تكديس وجمع للمفردات لا يؤدي إلى حل المشكلات ولا يأتي بنتيجة، إذ القارئ لا يشعر بأنها قدمت له حقيقة، وأول ما

إسهامات مالك بن نبي و جاك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي

توجه إليه المجتمع الإسلامي الذي انخرط في تيار التكديس هو منتجات الحضارة الغربية من (تلفاز وسيارة وهاتف وحاسوب...)، معتقداً بأن ذلك هو السبيل الذي تتحقق من خلاله النهضة المنشودة، وفي المقابل أن هذا التكديس يؤدي إلى التمدن لا إلى الحضارة، فالتمدن يمكن إنتاجه في لحظة معينة من الزمن، فيكفي أن نرتدي ملابس غربية ونظارات عالية وهاتفاً نقالاً من نوع رفيع واقتناء سيارة فخمة ونتحدث بلغة غيرنا فنحطم الرقم القياس في التمدن، لكن رغم كل هذا فسنظل نحمل في ذواتنا أفكاراً لا تحرك المجتمع وعقلاً ضيقاً لا يتعدى الأفق، كما هو حالنا اليوم، ويستقي بن نبي من ملاحظاته الدقيقة للواقع بعض الأمثلة التي تعبر بوضوح عن ذلك الاعتقاد بأن عجزنا يكمن في الأشياء، لذا ينبغي أن نضاعف تكديسها لعلنا نخفي نقائصنا إذ يقول: «ولكن روح التكديس والشيئية التي يجب القضاء عليها، ما زالت مستمرة البقاء».

(نبي م.، 2000، صفحة 50)

ويحاول بن نبي دائماً تحليل النتائج، التي تؤدي إليها تلك الانحرافات الفكرية والمنهجية التي تخلّ بالسير الصحيح لنهضة العالم الإسلامي وذلك لأن «الحضارة حينما تكون في حالة شيئية أو تمثل على صورة سائبة لا تمثل حضارة» (نبي م.، 2000، صفحة 57) لأن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف والسخرية أن تنعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاته، ذلك لأنه «من البديهي أن الأسباب هي التي تكوّن النتائج، وليس العكس، فالخطأ هو منطقي وكذلك تاريخي فمجرد محاولتنا لهذه المحاولة، فنحن سنبقى ألف سنة نقوم بالتكديس ولا نخرج بشيء» (نبي م.، 1978، صفحة 169)

أي أن النزوع إلى التكديس عامل إعاقة للنهضة لتعارضه مع مبدأ السببية من جهة، ومن جهة أخرى من خلال الاستسلام والدفاع عن المشاريع الاستعمارية وتأييدها وإصدار الأحكام وفقاً لمقاييس الاستعمار، و كما أن القابلية للاستعمار تظهر في ذلك الكسل العقلي والعمل الذي نواجه به مشكلات تتطلب الفعالية والهمة العالية والنشاط الدائم، فلا يمكن لمجتمع يريد النهوض من تخلفه أن لا يقوم بدعم البحث العلمي، وكذلك يعمل على تعطيل طاقات بشرية هائلة، ويخدرها، وهذا بمختلف أنواع التخدير أو يشغلها بمشكلات ثانوية عن مشكلاتها الجوهرية، ويضاف إلى هذا وجه آخر من أوجه القابلية للاستعمار، وهو محاربة المجتمع لفضائل الأخلاق

ونشر الرذيلة بين أفرادها، ويمكن إرجاع فكرة القابلية للاستعمار إلى عدة عوامل وشروط اجتماعية وفكرية ونفسية وكذلك سياسية تطفئ عليها السلبية بدرجة كبيرة، وتدفع بالمجتمع إلى الوقوع في الضعف والوهن وتجعله عاجزاً أمام التحديات التي تحيط به «والمجتمع يدخل في حالة وهن حضاري يُفقدّه يعجزه على رد التحديات، ويصبح مجبراً على الخضوع لها بطريقة مكرهة»، وهو ما بينه مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة"، فنجد مثلاً تلك الفتن والصراعات الداخلية ناتجة عن التعصب العرقي أحياناً وعن السياسات الانتخابية أحياناً أخرى، فتبدد الأموال والجهود. والتي قام بإنجازها أفراد ينتمون إلى الجيل السالف (نبي م، 2000، الصفحات 156-157) وأما عن غياب الذوق الجمالي في المجتمع فالتصرفات اليومية لأفراده توحى بأنك أمام جمع يعيش في فوضى أخلاقية، فهم بعيدين عن التحضر، وبغرض التوضيح يجب الإشارة إلى ما ذهب إليه "عبد اللطيف عبادة" وهو أن مفهوم القابلية للاستعمار هو «مفهوم مرتبط بالجانب النفسي وليس له علاقة بالعرق، كما يعتقد بعض الأفراد». (عبادة، 2014، صفحة 130)

وإذا كان غرض بن نبي من تركيزه على هذا الجانب النفسي، هو تبصير المجتمع وبيان الوضع الذي آل إليه من تخلف في شتى المجالات، وهو يحث أفرادها إلى النهوض والتخلص من الوهن والتبعية، والسعي إلى إخراج المجتمع من التخلف ودفعه إلى أعلى المراتب وتطويره، وهذا يكون بالاهتمام بالعلم والمعرفة والبحث العلمي.

4-2- نظرية الحضارة عند مالك بن نبي:

إن فكرة الحضارة هي المحور الرئيسي والإطار الأساسي، الذي يدور حوله وفي نطاقه أفكار مالك بن نبي، «فالمشكلات كلها تكون مرتبطة وتندرج تحت المشكلة ومنه المشكلة الحضارية تهتم بكل مشكلة يعاني منها شعب أو أمة». (عويدي، 2012، صفحة 377) ووضع كتبه في سلسلة "مشكلات الحضارة" التي يرى فيها أنه لا يمكن للفرد أن يفهم أو يحل مشكلة إذا لم يرتفع بفكرية إلى الأحداث الإنسانية، ولم يدرس بعمق العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، مركزاً في ذلك على أهمية الفكرة ودور المسلم في حركة التاريخ. (نبي م، 2002، صفحة 58)

وعليه يعرف الحضارة من عدة جوانب:

- الحضارة من ناحية الوظيفة: «فهي القوانين الأخلاقية والمادية التي تنتج لمجتمع معين، وهي تعمل على تنظيم المجتمع ومساعدة أفرادها»

- كما تعد الحضارة عنده: «هي إنتاج فكرة نوعية تطبع على مجتمع في مرحلة قبل التحضير العينة التي تدخل بها التاريخ، وهذه الحضارة تتميز بخصائص ومميزات تميزها بخصائصها الثقافية عن سائر الثقافات والحضارات أخرى».

- الدورية الحضارية: يرى مالك بن نبي «أن المجتمع في بداية تركيب عناصر الحضارة يلجأ إلى اعتماد أفكار دينية، وهي التي تولد القدرة والدافعية عند الأفراد»، باعتبارها تثير فيها الحركة والنشاط وبها يتحرر الفرد، وكما يمكن أن يحدث منعطفا في الحضارة وذلك بسبب انعدام سيطرة الروح على الغرائز، وعلى ذلك يبدأ عمل العقل، كما أن العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز، إلا أن دور الغرائز يمكن في تحرير قيودها، وبهذا تفقد الروح نفوذها، و«هنا تنقص آفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية على الرغم من الوصول الحضارة إلى أوج رقيها وازدهارها في العلوم والفنون، وعلى الرغم من كل هذا إلا أن الحضارة تدخل طور انحطاط ولا يعود للفكرة الدينية لها وظيفة اجتماعية وتؤدي إلى تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، ولا تعود هناك فعالية للدور الحضاري».

ويميز بين وضعين متناقضين للإنسان وضع ما قبل الحضارة، وهو حالة الإنسان الطبيعي وهو مستعد للدخول في دورة الحضارة، كما هو الحال مع العرب قبل ظهور الإسلام، ووضع ما بعد الحضارة «وهو الإنسان الذي تفسخ حضارياً هي حالة إنسان لم يعد مستعداً للإنجاز عمل معين»، وعليه فالحضارة «هي اجتماع العناصر الثلاث إضافة إلى العامل الديني الذي يمزج بين العناصر بعضها ببعض وغياب هذا الأخير (الدين) يؤدي إلى انحلال العناصر».(شاويش، 2007، صفحة 25)

ونستخلص من خلال هذا أن الدورة الحضارية تركز بدرجة الأولى على الدين (كمركب حضاري)، كما يؤدي إلى ميلاد شبكية العلاقات الاجتماعية، وهي بدورها تربط بين أنساق (الأشخاص، الأفكار، الأشياء)، وقد قسم مالك بن نبي عناصر الحضارة إلى:
أ- الإنسان: إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة، وهذا لكون الإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء وتحقيق قفزات نوعية. ويرى محمود العقاد أن الإنسان في الحضارة الإنسانية

«هو ظاهرة وباطن الوجود الذي خلق فيه وظاهرة تحكمه قوانين السلوك العملي، ويقاس بالمقاس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموعة».(شاويش، 2007، صفحة 28)

ونجد مالك قد منح أهمية بالغة للعنصر البشري الذي هو العنصر الأساسي في تكوين الحضارة، باعتباره محور الفاعلية في حركة الحضارة «هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لمعادلة الحضارة ومحور كل العمليات الشفوية والاقتصادية والثقافية»(الدين، 2000، صفحة 27)

ب- التراث: عندما يتكلم مالك بن نبي على التراث فإنه لا يبحث في خصائصه وطبيعته ولكن يتكلم «عن التراث من حيث قيمته الاجتماعية، فحيث تكن قيمته الاجتماعية حيث تكون قيمة الأمة مرتفعة يكون التراث عالي القيمة، وهو العنصر الثاني بعد الإنسان الذي يساعد في المعادلة الحضارية،».(نبي م، 2000، صفحة 146)

ت- الوقت: إن فكرة الزمن تتخذ معنى التأثير وإنتاج في تكوين الفكرة والنشاط في تكوين المعدني للأشياء، «لقد أرجع مالك بن نبي مشكلات التخلف وسبب تأخر العرب إلى عدم معرفتهم بمفهوم الوقت».

ث- السياسة: تعد السياسة الهيكل الذي تقوم عليه أي دولة من أجل النهوض والقيام بمشاريعها وبروزها، ولذلك أولى لها مالك بن نبي اهتماما باعتبارها من أهم القضايا التي تساهم في تحقيق التحضر والنهوض، ويمكن تعريف السياسة «على أنها العمل الذي تقوم به كل جماعة منظمة في صورة دولة، ووظيفتها محددة بدستور أو بتقاليد عريقة تضبطها».(نبي م، 1978، صفحة 99)

4-3- الثقافة ودورها في إصلاح المجتمع:

تُعَدُّ الثقافة عند مالك بن نبي عنصراً مركزياً وأساسياً في فهم مآزق المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وفي بناء مشروع إصلاحي شامل يُعالج جذور التخلف الاجتماعي والحضاري، وينطلق بن نبي من القول بأن الثقافة ليست مجرد تراكم معلومات أو عادات اجتماعية عابرة، وإنما هي في جوهرها "أسلوب الحياة" الذي يعكس منظومة القيم، الأفكار، والمعتقدات التي تُشكل سلوك الفرد والجماعة داخل المجتمع، وتُحدد اتجاهاته الفكرية والعملية تجاه العالم والآخر. بالنسبة له الثقافة هي البيئة

إسهامات مالك بن نبي وجاهك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي

المعرفية التي تُنمي القدرة على التفكير النقدي والابتكار، وتُحفز على المبادرة بدل الاتكال، وتُحرّر الإنسان من سلطان التقليد والخرافة، وتُريّ الأرضية الذاتية لإصلاح الذات والمجتمع.

ويلاحظ بن نبي أن الثقافة الحقيقية تقوم على تفاعل الإنسان مع عالم الأفكار والأشياء، وهو ما يُكسبه القدرة على الإبداع والإنتاج والتجديد؛ إذ يرى أن أية نهضة حقيقية لا تبدأ من المال أو التكنولوجيا وحدها، وإنما تبدأ من تغيير العقلية الثقافية بالأساس، من خلال إدماج الإنسان في منظومة قيم جديدة تحرره من الإحباط والوهن وتجعله فاعلاً في صنع حضارته. ومن هذا المنطلق، يرفض بن نبي الفكرة التي تُقدّم الإصلاح السياسي أو الاقتصادي كهدف أول، ويؤكد بدلاً من ذلك أن الإصلاح الحقيقي يجب أن يبدأ بتغيير الثقافة، لأن الثقافة هي التي تُشكّل الوعي العام وتؤسس للسلوكيات الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية التي تُنتج أو تُعوق وتُجلى وظيفة الثقافة عند بن نبي في كونها آلية لإنتاج "الوعي الذاتي" لدى المجتمع وتحريره من العقد النفسية الناتجة عن سنوات الاستعمار والاعتماد على الأجنبي ومن ثم تمكينه من استعادة هويته وموقعه الحضاري، وفي هذا السياق، يعتبر بن نبي أن الثقافة تُمكن الفرد من فهم واقعه بشكل نقدي ومسئول، وتؤهله للمشاركة الفعالة في بناء المجتمع عبر عمل جماعي مؤسسي ترتبط فيه المعرفة بالقيم والأخلاق والمسؤولية الاجتماعية، ولهذا يربط بن نبي بين الثقافة والإصلاح الأخلاقي والتربوي والسياسي، فيقول بأن أي مشروع إصلاحي لا يُعالج الأزمة الثقافية في جوهرها سيكون هشاً وغير قادر على تحقيق استدامة الإصلاح، لأن الثقافة هي التي تُغذي الفكر وتوجّه السلوك وتُحدّد أولويات المجتمع.

من هنا نجد أن الثقافة عند بن نبي ليست مجرد عنصر من عناصر المجتمع، وإنما هي "القوة الدافعة" التي تُحدّد مسار التغيير والإصلاح الاجتماعي، فهي البيئة التي تُشكّل من خلالها الوعي الجمعي، وتُحفّز على إنتاج الأفكار الجديدة، وتُضيف قيمة حضارية للوجود الاجتماعي، وتُمكن من التفكيك النقدي للتراث البشري، ومن تطوير أساليب الحياة لتواكب تحديات العصر، وبالتالي، يرى بن نبي أن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يكون بدون نهوض ثقافي حقيقي يبدأ من الفرد ثم ينتقل إلى الجماعة، ومن ثم إلى مؤسساتها المختلفة، وهو إصلاح مرتبط بالقيم الأخلاقية وبالفهم الصحيح

للدين، وبالقدرة على تحويل المعرفة الثقافية إلى سلوك اجتماعي بَناء. (نبي م، 1984، الصفحات 124-125)

4-4- الدراسة المقارنة بين جاك بورك ومالك بن نبي:

يُعدّ جاك بورك من أبرز علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين اشتغلوا على دراسة المجتمعات العربية والإسلامية من منظور علمي نقدي، سعى من خلاله إلى تجاوز المقاربات الاستشراقية التقليدية، وقد تميزت إسهاماته السوسيولوجية بتركيزه على تحليل البنى الاجتماعية في سياقها التاريخي والثقافي، مع اعتماد مقاربة إنسانية تُعلي من قيمة الفاعل الاجتماعي وتفاعله مع محيطه.

4-4-1- أوجه الاتفاق بين المفكرين:

انطلق جاك بورك في تحليله للبنية الاجتماعية للمجتمع العربي من رفضه للتصورات الاختزالية التي سادت في الدراسات الاستعمارية، والتي كانت تنظر إلى هذا المجتمع بوصفه بنية جامدة ومغلقة، فقد أكد أن المجتمع العربي يتميز بتعقيد بنيوي نابع من تداخل عناصر متعددة، من بينها القرابة، والدين، واللغة، والتاريخ، وأن هذه العناصر لا يمكن فهمها إلا في إطار نسق اجتماعي متكامل، واهتم جاك بورك بدراسة أنماط التنظيم الاجتماعي التقليدية، مثل القبيلة والعائلة والعلاقات القرابية، معتبراً إياها مكونات أساسية في تشكيل الروابط الاجتماعية، وليست مجرد بقايا ماضٍ متخلف كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين الغربيين. كما أبرز أن هذه البنى تمتلك قدرة على التكيف مع التحولات الاجتماعية، مما يعكس ديناميكية المجتمع العربي واستمراريته التاريخية، ويؤكد جاك بورك أن فهم المجتمع العربي يقتضي دراسة ممارساته اليومية، وأنماط عيش أفرادها، وتمثيلاتهم الثقافية، وهو ما جعله يعتمد على البحث الميداني والمعايشة المباشرة، بدل الاكتفاء بالتحليل النظري المجرد. وبهذا، أسهم في إغناء علم الاجتماع بدراسات عميقة تراعي خصوصية الواقع الاجتماعي العربي. (بورك، 1967، الصفحات 55-56)

4-4-2- أوجه الاختلاف بين المفكرين:

يحتلّ مفهوم التغير الاجتماعي مكانة مركزية في فكر جاك بورك، إذ يرى أن المجتمعات العربية ليست مجتمعات ساكنة، بل هي مجتمعات تعيش تحولات مستمرة

إسهامات مالك بن نبي و جاك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي

بفعل التفاعل بين التراث والحداثة، غير أن هذا التغير، حسب، لا يمكن اختزاله في عملية استنساخ للنموذج الغربي، بل يجب فهمه في سياقه التاريخي والثقافي الخاص، وينتقد جاك بورك بشدة التصورات التي تربط الحداثة بالقطيعة التامة مع الماضي، معتبراً أن مثل هذا الطرح يؤدي إلى تشويه الهوية الاجتماعية وخلق أزمات ثقافية عميقة، ويرى أن التغير الاجتماعي السليم هو ذلك الذي يقوم على إعادة قراءة التراث وتوظيفه في بناء الحاضر، بدل إلغائه أو تقديسه بشكل جامد، وكما شدد جاك بورك على أن مشاريع التحديث المفروضة من الخارج غالباً ما تفشل، لأنها لا تنبع من الحاجات الحقيقية للمجتمع، ولا تراعي بنيته الاجتماعية وقيمه الثقافية، وبهذا الطرح، ساهم في تطوير علم الاجتماع النقدي، من خلال تأكيده على تعددية مسارات التحديث ورفضه للنموذج الواحد (Berque، 1964، الصفحات 81-82)

4-4-3- القيمة العلمية لإسهاماتهما في علم الاجتماع:

خصّص جاك بورك جانباً مهماً من تحليلاته السوسيولوجية لدراسة أثر الاستعمار في المجتمعات العربية، معتبراً إياه عاملاً حاسماً في إحداث اختلالات عميقة في البناء الاجتماعي. فقد بيّن أن الاستعمار لم يكن مجرد سيطرة سياسية أو اقتصادية، بل كان مشروعاً لتفكيك البنى الاجتماعية والثقافية القائمة، وفرض نماذج تنظيمية غريبة عن المجتمع، وأوضح جاك بورك أن السياسات الاستعمارية أدّت إلى إضعاف الهياكل التقليدية، مثل العائلة والقبيلة، دون أن توقّر بدائل اجتماعية متماسكة مما ساهم في خلق أزمات اجتماعية وقيمية ما تزال آثارها قائمة إلى اليوم، كما أبرز أن الاستعمار أسهم في إنتاج علاقات اجتماعية غير متكافئة كرّست التبعية والاغتراب داخل المجتمع الواحد، ومع ذلك لم يتعامل جاك بورك مع المجتمع العربي بوصفه ضحية سلبية، بل أكّد على قدرته على المقاومة وإعادة بناء ذاته، من خلال التمسك بعناصر الهوية الثقافية وإعادة توظيفها في مواجهة الهيمنة، وبهذا، قدّم تحليلاً سوسيولوجياً متوازناً يدمج بين نقد الاستعمار وفهم الديناميات الداخلية للمجتمع. (بورك، 1990، صفحة 92)

5. خاتمة:

إن إسهامات كل من جاك بورك ومالك بن نبي تمثل إضافة علمية مهمة لعلم الاجتماع، من خلال مقاربات سعت إلى فهم المجتمع العربي في أبعاده التاريخية والثقافية والحضارية. فقد قدّم جاك بورك قراءة سوسيولوجية نقدية ابتعدت عن التفسيرات الاستشراقية، في حين ركّز مالك بن نبي على تحليل مشكلات التخلف من منظور داخلي قائم على إصلاح الفكر والثقافة، وعلى الرغم من اختلاف منطلقاتهما الفكرية، فإنهما يلتقيان في التأكيد على مركزية الثقافة والإنسان في عملية التغيير الاجتماعي، مما يجعل إسهاماتهما ذات قيمة علمية متجددة في دراسة المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة.

5. قائمة المراجع:

- جاك بورك. (1967). *العرب تاريخ ومستقبل*. بيروت: دار الطليعة.
- جاك بورك. (1980). *العرب بين الأمس والغد*. (ترجمة: محمد عيتاني) بيروت: دار الطليعة.
- جاك بورك. (1982). *الشرق الثاني*. (ترجمة: خليل أحمد خليل) بيروت: دار الحداثة.
- جاك بورك. (1990). *الإسلام في مواجهة العصر*. (فريد الزاهي) الدار البيضاء: دار توبقال.
- جاك بورك. (2008). *المغرب بين الحربين: محاولة سوسيولوجية لبلد في حالة تحول*. (المترجم: محمد بناني وآخرون) الدار البيضاء المغرب: دار توبقال للنشر.
- رضوان نايف. (2005). *إشكاليات السوسيولوجيا في الفكر العربي المعاصر دراسة مقارنة*. بيروت: دار النهضة العربية.
- عبد اللطيف عبادة. (2014). *صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ط2*. الجزائر: دار بن مرابط.

إسهامات مالك بن نبي و جاك بورك في التحليل السوسيولوجي للمجتمع العربي

عبد الله بن حمد عويسي. (2012). *مالك بن نبي حياته و فكره*. بيروت - لبنان: الشبكة العربية للأبحاث و النشر.

مالك بن نبي. (1978). *تأملات*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1984). *مشكلة الثقافة* (ط 4). (ترجمة: عبد الصبور شاهين) دمشق سوريا: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1986). *شروط النهضة*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (2000). *القضايا الكبرى*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (2002). *دور المسلم و رسالته في الثلث الاخير في القرن العشرين*. بيروت: دار الفكر المعاصر.

محمد شاويش. (2007). *مالك بن نبي بين الوضع الراهن*. دمشق: دار الفكر.

مسعودان نور الدين. (2000). *مالك بن نبي (حياته و مؤلفاته)، شهادات ومواقف*. الجزائر: دار النون للنشر و التوزيع.

نورة خالد السعد. (1997). *تغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي*. جدة: الدار السعودية للنشر.

Jacques Berque, (1960) *Dépossession du monde*. Jacques Berque): paris ,Seuil.

Bentednouchet Mostafa, (1982), *la culture en Algérie Mythe et réalit*. Alger: SNED.